الفصل السابع

تلقيت في الأسبوع اللاحق خبراً أفضل من هدية العيد؛ إذ كنت جالساً في البيت أستمع إلى المذياع حين سمعت المذيع يقول: **أعلنت لجنة الامتحانات الوطنية نتائج امتحان المعايير الثمانية. إذا أردتم معرفة نتيجتكم، فإنّ اللجنة تهيب بكم زيارة المكان الذي قدَّمتم فيه الامتحان.**

قلت لوالدتي: **لقد ظهرت نتيجتي**، ثمّ سرت نزولاً باتجاه مدرسة ويمبي الابتدائية، وكنت أقفز تجنّباً من البِرَك والحفر التي ملأت الطريق، وشعرت بثقة كبيرة جعلت فكري يسرح ويُحلِّق عالياً. تُرى، بأيّ المدرستين الداخليتين سألتحق: تشايامبا أم كاسونغو؟ ولما كانت قرّرت أن أصبح عالِماً– ليس مجرّد عالِم، إنّما عالِم عظيم–، فقد عرفت أنّ تلكما المدرستين تضمان أفضل المدرِّسين، إضافة إلى المكتبات والمختبرات وكلّ ما أحتاج إليه لأحقِّق حلمي. لم يكن هنالك فرق بين الاثنتين بالنسبة إليّ؛ فأنا مستعد للالتحاق بأيٍّ منهما.

كانت اللائحة معلَّقة على جدار خارج مبنى الإدارة. وكان هنالك بعض الطلاب الذين زاحمتهم لأصل إلى المقدّمة. تضمّنت اللائحة قوائم بأسماء مدارس عدّة، وأسماء طلاب كلّ منها مرتّبة. وسرعان ما وجدت اسم مدرسة كاسونغو وبحثت في الأسماء تحتها، ثمّ انتقلت إلى مدرسة تشايامبا، ونزلت بإصبعي وأنا اقرأ الأسماء: كالامبو، كاليمبو... ثمّ ماكالاني.

قرّرت أن أنتظر هُنيهة؛ إذ لا بُدّ أنّ هنالك خطأً ما...

بحثت في القوائم مرّة أخرى، لكنّني لم أجد اسمي فيها. وما هي إلّا لحظات حتى قال صبي يقف خلفي: **هذا أنتَ، كامكوامبا**. كان اسمه مايكل، وهو أحد الطلاب المتفوقين، وأردف: **ستذهب إلى كاتشوكولو**.

لقد كان محقّاً؛ إذ كان اسمي ضمن قائمة مدرسة كاتشوكولو المتوسطة التي تُعَدّ الأسوأ في المنطقة كما يُعتقَد. كانت كاتشوكولو مدرسة مجتمعية (قروية). لذا، فهي لم تحظَ باهتمام الحكومة ودعمها عند توزيع التمويل.

قلت متعجّباً: **كيف حدث ذلك؟**.

نُشِرت علامات الامتحان على لوح آخر، حيث وجدت اسمي، وعرفت سبب ترشيحي لتلك المدرسة؛ إذ كانت علاماتي دون المأمول، وهي على النحو الآتي:

الرياضيات: جيد.

العلوم التمهيدية: جيد.

اللغة الإنجليزية: جيد.

لغة التشيتشيوا: جيد جدّاً.

الدراسات الاجتماعية: مقبول.

انتابني حزن عميق، وتخيّلت نفسي أمشي طريقاً طويلاً للوصول إلى كاتشوكولو التي تبعُد زهاء خمسة كيلومترات تقريباً. كانت المدرسة بجانب شركة تبغ كبيرة على طريق مليء عادة بالوحل والحشرات. كما كان هنالك سدّ كبير قربها، حيث كنت أذهب مع غيلبرت وجيفري إلى هناك أحياناً لصيد السمك.

قال مايكل ضاحكاً: **مُبارَكٌ عليك مدرسة السدّ، ستصبح صياد سمك ماهراً من دون شكّ**»

رددت عليه كأنّني أُفكِّر بصوت مسموع: **أستطيع الحصول على شهادة الامتحان التأهيلي، ثمّ الانتقال إلى مدرسة أفضل، ستراني قريباً في كاسونغو، سنرى مَنْ يضحك في الآخر.**

فقال ساخراً: **حظّاً طيّباً.**

هذا ما كنت أنوي فعله، لقد حزمت أمري. سأثابر لأصبح أفضل طالب في تلك المدرسة القروية، ثمّ اجتاز الامتحان التأهيلي، مثيراً دهشة الجميع. سأجعلهم يجثون على ركبهم في مدرستي كاسونغو وتشايامبا راجين انضمامي إليهم. وعلى الرغم ممّا حدث، فقد كنت مستعدّاً للذهاب إلى هذه المدرسة؛ إذ اختير غيلبرت أيضاً لمتابعة دراسته هناك (كانت علاماته متدنية هو الآخر). وقد تخيّلت كيف سنمشي معاً إلى المدرسة، الأمر الذي زادني حماساً. كان قد تبقّى لديّ أسبوعان لتحضير نفسي.

بدأ العام الجديد بأمطار يومية روت فسائل الذرة وحفزتها إلى النمو. كانت السيقان حينها قد اخضرت وأصبحت تطاول ساقي والدي. أتاحت لنا الأمطار أيضاً نقل أشتال التبغ من الدامبو إلى الحقول؛ لتنمو الفسائل قوية.

دبَّت الحياة في الغابات أيضاً بفضل الأمطار التي ساعدت على تفتّح الأزهار والبراعم. كانت الأرض يانعة وخضراء أينما ذهبت، ورائحة الهواء لطيفة منعشة. لقد كان الأمر أشبه بمزحة؛ إذ لم يكن هنالك شيء موجود للأكل.

كان موسم المطر يُنذِر بتكاثر الحشرات وتفقيس صغارها، فضلاً على الذباب الذي يحوم حول المراحيض، ويصعد من على الحفرة الامتصاصية، سميناً بلونه الأسود الضارب إلى الخضرة. أمّا في الخارج، فكان الذباب كثيراً لدرجة أنّك لا تستطيع الخلاص منه؛ إذ كان يتجمّع على قدميك إذا كنت واقفاً من دون حراك، وعلى وجهك إذا كنت تحاول التحدث. لقد كان الناس يهشّون الذباب أينما ذهبوا.

كان هنالك أيضاً أسراب كثيرة من البعوض الذي يحمل الملاريا والموت بين طيّات أجنحته. أما الصراصير فكانت أكبر حجماً، وأكثر عدداً من المعتاد. وبعد هطل الأمطار الغزيرة في أثناء الليل، كان الوادي يضج بأصوات ملايين الضفادع: بعضها يزعق وينقنق،

بينمـا كان النداء بيـن آخرين يشبه صوت حبّـات مطر ضخمة تهطل مـن الجنة: **بلووب... بلـووب... بلـووب**. لقـد كان موسمُ المطر موسمَ الوحل والحشـرات دون ريب؛ وهو موسم لا يشبع فيه سوى العناكب والأوزاغ.

أمّـا البشر، فكان المطر لا يجلب لهم سـوى مزيداً من البؤس لأولئك الذين يصارعون مـن أجـل البقاء. ومع أنّ أحداً لم يكن قادراً على دفع أجـرة الواغانيو، فإن كثيرين استمروا في التجوّل، حاملين حُزمهم ومعاولهم، غائصين في الوحل، غارقين بثيابهم من المطر.

فـي تلـك الأثناء، وصل سعر دلو الـذرة إلى نحو ألف كواتشا، وأصبـح عمّال **الواغانيو** والآخـرون كافة يعتمدون علـى تناول **الغاغـا**. وما إن شحّت كميات الغاغـا حتى أخذ التجار يخلطونهـا بنشارة الخشب. كانت الحبيبـات الصفراء تُوارى بطريقة ما في التبن البني، ولا يظهر أثرها إلى أن تؤذي العصيدة معد الناس. وحين كُشِف الأمر تجمَّع نفر من الناس حول التجار الذين كانوا ما يزالون يبيعون في السوق، ثمّ صرخوا، قائلين:

– لقد أنفقت مالي كلّه، وكلّ ما حصلت عليه هو بطن مليء بنشارة الخشب!.

– أبنائي في البيت يعانون المرض!.

– تصرفكم ليس إنسانيّاً!.

كانوا يعلمون أنّه من حقّهم التقدّم بشكوى ضد هؤلاء التجار. ولكن، لم يكن بمقدورهم فعل شيء وجيوبهم خاوية.

كانت والدتي تقضي ساعات في البيت وهي تخبز الكعك، حيث تخلط العجين، و تضعه فـي وعاء معدني، ثمّ تدفنه في الفحم. كانت تُكرِّر هذا الأمر مرّات عدّة لتحصل في النهاية على مئة كعكة، تضعها في حوض كبير، ثمّ تغطّيه بالقماش. بعد ذلك، كانت تملأ إبريقاً من الماء، وتأخذ بعض الأكواب؛ لكي يتمكّن الجائعون من ملء معدهم بالماء بعد تناول الكعك. وعنـد عودتهـا إلى البيت مساء، كنّا نتنـاول الحوض من يديها متظاهريـن بمساعدتها، في حين كنّا في الواقع نلقي نظرة تحت القماش لنشاهد كمية الدقيق التي جنتها.

كان معظـم زبائنها من الفلاحين الذين باعوا مقتنياتهم، أو أخذوا قروضاً من التجار أو رجـال الأعمـال الذين أصبحوا يفرضون فائدة نسبتهـا 300 %. تلك كانت الشروط، وإذا لـم يعجبك الأمـر، فيمكنك عرض صحونك وسقف بيتـك عليهم. لـذا، كان معظم الناس يأخـذون القروض؛ إمّا لأنّهم لم يكونوا يملكون شيئـاً أصلاً، وإمّا لأنّ بيوتهم أصبحت خاوية على عروشها.

أصبـح الوضـع فـي المركز التجاري أكثـر توتراً في ظـلّ تلك الشروط؛ إذ بـدأ الناس يتحلّقـون حول التجار، مـن أمثال السيد مانغوتشي، لبثّ شكواهم. ولكن، نادراً ما كانت تلك الشكاوى تتطوّر إلى تهديدات؛ إذ لم يكن لدى الناس طاقة تعينهم على ذلك. وكثيراً ما كانوا يصرخون:

هذا طعامنا. لماذا تجوّعوننا بفرض تلك الأسعار؟

فيجيب السيـد مانغوتشي، قائلاً: **المُزارِعون في تنزانيا يتقاضـون منّا الضعف. وإذا بعت بسعر أقل فسينتهي أمري، ولن تجدوا شيئاً في الغد.** وفي واقع الأمر، فقد كان محقّاً فيما قاله.

وصلت والدتـي إلى السوق كالمعتاد ظهيرة أحد الأيام، ثمّ نصبت طاولتها، وما هي إلّا ثوانٍ حتى تجمّعت حولها حشود صارخة وممسكة بأغراضها.

صرخت إحدى النساء: **سآخذ اثنتين!**.

قال رجل: **أعطيني ثلاثاً!**.

وفي خضم تلك الفوضى والاندفاع، لم تلحظ والدتي أنّ بعض الأشخاص كانوا ينشلون الكعـك من الحوض. أمّـا آخرون، فبعد أن طلبوا ما يريدون، تناولـوه وهربوا. حتى إنّ رجلاً جلسـ بجانـب والدتي، قائـلاً: أعطيني **ثلاثـاً**، ثمّ تناول ثـلاث كعكات من الحوضـ وأكلها بسرعة.

فقالت والدتي: **هاتِ تسع كواتشات**.

أجاب: **لا مال لديَّ.**

وحين عادت والدتي إلى البيت مساء، كان شعرها منفوشاً، ووجهها مخطوفاً متعباً.

قلت وأنا أمسك الحوض لألقي نظرة: **أمّاه، لا بُدّ أنّك مُنهكة.** كان الحوض فارغاً تقريباً.

قالت: **أخذوا كلّ شيء تقريباً. لن يكون لدينا كثير الليلة.**

كانت محقّة؛ فقد تناولنا عشاء متواضعاً تلك الليلة.

ومع استمرار ارتفاع سعر الذرة، اضطر أبواي إلى تقليص الكميات المشتراة. وقد أدى ذلك إلى تقليص كميات الكعك التي تبيعها والدتي؛ ما يعني تناقص كمية الطعام التي سنتناولها. وبذا، أصبحت كتلة السيما خاصتنا تتقلّص شيئاً فشيئاً (خمس لقم، فأربع).

وحينئذٍ، أخذت والدتي توجِّهنا، قائلة: **كلّما وضعتم السيما في أفواهكم اشربوا الماء، وستخدعون معدكم بتلك الطريقة.**

ومع أنّنا – معشر الأطفال – كنّا ملتزمين بحصصنا من الأكل، فإن شقيقتي روز، التي كانت حينها في سنّ السابعة، أخذت تتناول حفنة من السيما وتحشوها في فمها قبل أن يتمكّن أحد من إيقافها.

فصرخت دوريس التي كانت في عامها الثاني، قائلة: «**أنتِ! تروّي قليلاً. أمّاه، إنّها تأخذ قطعاً أكبر!**».

ردّت روز بغضب: **ربّما يجدر بك الأكل على نحوٍ أسرع.**

وفي واقع الأمر، فقد كنّا جميعاً نزداد نحافة، خاصة روز وميليس، أصغر اثنتين مع تياميكي. فقد ورثنا – مع الأسف – بنية والدتي (صغر الحجم، والنحول). لذا، كان الجوع بادياً على جسديهما عامة، وعلى وجهيهما الغائرين على وجه الخصوص. كنت أنا وعائشة ودوريس فارعي الطول كوالدي. لذا، كانت بنيتنا أكثر امتلاءً، مع أنّني ابتكرت حينها حزاماً من قماش طويل لكيلا يسقط بنطالي. كان عليَّ أن أصبح أكثر إبداعاً مع مرور الوقت.

لـم ينهر والدي أو والدتـي روز قطّ على أخذها كمية طعام تفـوق حصتها. أمّا دوريس فسرعـان ما طفـح كيلها، وأُصيبت بحالة مـن القلق والتوتر في الأسابيـع المنصرمة؛ خوفاً مـن عدم حصولها على طعام فـي أثناء العشاء، أو تراخي والديّ في مـدّ يد العون لها. لذا، أصبح وقت تناول الوجبات يشوبه الإجهاد والقلق. فذات ليلة، وعندما كنا جالسين حول طبق السيمـا، مـدّت روز يدها وتناولت قطعة كبيرة كالعادة. ولكن قبل أن تضعها في فمها، قفزت دوريس من فوق الحوض، وأخذت تلكمها على وجهها.

صرخت روز: **أمّاه!**.

«**كُفّا عن ذلك!**»، صرخت والدتي بينما حاولت تفريقهما؛ وهي مهمة يبدو أنّها استنزفت ما تبقّى من طاقتها. **كُلا، وحاولا أن تنسجما فحسب. أنا لا أقوى على التعامل معكما.**

خلدنا إلى النوم جياعاً تلك الليلة أيضاً، وكانت رائحة الطعام لا تزال عالقة بأصابعنا؛ رائحة لا يُمكن حتى للماء إزالتها.

لاذت الحكومـة بالصمـت علـى الرغم من نفاد الطعـام في شتّى أنحاء مـالاوي. وكنّا نستمـع إلـى المذياع كلّ يوم لنتعرّف أخبار المجاعة، لكنّهـا (الحكومة) كانت تتجاهل ذلك. ومـع نفـاد المخزون مـن صوامع جمعية بريـس الزراعية لدرجـة أنّ عمّالهـا أنفسهم بدأوا يتوسّلـون للحصـول على الطعـام، إلى جانب نفاد مخـزون إدمارك أيضاً؛ لـم تَلُح في الأفق بـوادر على قرب وصول أيّ نوع من المساعدات. فبدأ الجوع يُولِّد الريبة في النفوس، والريبة تُولِّد الإشاعات.

ثمّ أخذ الناس يقولون:

– لقد باعوا كلّ غلّتنا ومحصولنا من الذرة! ماذا باعوا أيضاً؟

– لا شيء في مأمن بمالاوي.

– ما الذي يحاولون إخفاءه عنّا؟

لقد كانوا مقتنعين أنّ الحكومة ستنهار. لذا، أسرع المُزارِعون إلى المصارف في كاسونغو لسحب ما تبقّى من مدخراتهم القليلة. وفي صباح يوم مطير، ركب والدي شاحنة برفقة رجال آخرين مُتوجِّهاً صوب البلدة. ولمّا وصل وجد صفّاً طويلاً يمتد من باب المصرف حتى نهاية الشارع. انتظر نحو مئة رجل طوال النهار تحت وقع المطر ومعدهم خاوية إلّا من الغضب والخوف. وحالما دخلوا، طلب إليهم الموظف المُنهمك أن ينتظروا وقتاً آخر، فهدَّد المُزارِعون بإثارة أعمال شغب، قائلين: **أعطونا مالنا حالاً! ما الذي تحاولون إخفاءه عنّا؟**.

ولحسن الطالع، فقد تمكَّن والدي من سحب مدخرات العائلة كلّها (ألف كواتشا تقريباً)، ثمّ اشترى بها دلواً آخر من الذرة، ثمّ طحنه وباعه في اليوم اللاحق. وبذا، استطعنا توفير طعام لأسبوع آخر.

وعلى الرغم من كلّ ما كان يحدث، فقد كان اهتمامي منصبّاً على حدث مهم منتصف شهر كانون الثاني حين تبدأ الدراسة في مدرسة كاتشوكولو المتوسطة؛ حدث أُخطِّط له منذ أسابيع عدّة، يتمثَّل في كيفية توفير بنطال طويل، والمضي قُدماً مع صديقي غيلبرت لشقّ طريقنا نحو المستقبل كالرجال. لقد جنَّبني التفكير في المدرسة التفكير في المشكلات المحيطة بنا. وكان الشعور بالجوع في أثناء وجودي في المدرسة أقلّ وطأة من الشعور به في البيت.

كانت مشكلتي الوحيدة هي الزي المدرسي. كان لديّ بنطال أسود، لكنّ والديّ لم يتمكّنا من شراء قميص أبيض مناسب لي من المدير. وكان البديل أن أرسلتني والدتي إلى أكشاك الملابس المستعملة في السوق التجاري، قائلة: «**ماذا يضيرك لو لم تعرف منشأه؟ المهم في الأمر كلّه هو أن يكون أبيض اللون**».

كان لديَّ قميصان أصلاً، وكنت قد ارتديت قميص الزي قبل بدء الدراسة؛ ما أدّى إلى اتساخه، ولم يكن بالإمكان غسله بالصابون؛ نظراً إلى نفاد آخر قطعة منه. وكنّا قد تدبّرنا أمر شراء قطعة من صابون مالوا القلوي الزهيد الثمن بداية الشهر، لكنّها استُخدمت كلّها، ولم يبقَ منها شيء. كان يمكننا غسل أجسادنا بالماء الدافئ وأعشاب البونغوي، لكنّ الأمر كان صعباً مع القميص الأبيض.

وذا صبـاح، أخرجت نصف عجلة جرّار كنّا نستعملها لغسـل الثياب، ثمّ ملأتها بالماء الساخـن، ثـمّ نقعت القميص فيها إلى أن برد الماء. بعد ذلـك، فركته بالبونغوي، لكنّ ذلك لـم ينفع؛ إذ بقيت الدوائر المصفـرة جاثمة حول منطقة الإبطين، كما بقيت الياقة رمادية. لم يكن بيدي حيلة.

في أول يوم من أيام الدراسة، قابلت غيلبرت في الطريق لكي نذهب معاً، وقد دار بيننا الحوار الآتي:

– غيلبرت، بو؟

– بو!.

– أكيد؟

– أكيد!.

– هذا هو اليوم المنتظر يا صديقي!.

– بالطبع!.

– مَنْ سيضربنا أولاً برأيك؟

– حسناً، كنت أُفكِّر في خطة؛ إذا اقترب منّا أحد الفتية من الذين يكبروننا سنّاً، ولم تبدُ عليه علامات القوة، فسنتولّى أمره مباشرة.

– يا لها من خطة محكمة! سيثبت ذلك للجميع أنّنا قادرون على القتال.

– حتماً.

– مَنْ سيضربه أولاً؟

– أعتقد أنّ عليك فعل ذلك.

استغرقـت رحلتنا إلى المدرسة أربعين دقيقة، صعدنا فـي أثنائها تلالاً، وجزنا حقول الـذرة ومستنقعـات الدامبو حيث كنّا نصطاد أحياناً. يُذكَر أنّ المدرسة بُنِيت في وادٍ محاط

obeikandl.com

بضيع التبغ، وقد شاهدت مراراً جرّارات ضخمة تعمل بالديزل وهي تحرث التربة، وكثير من الرجال المحظوظين بالعمل تحت لهيب أشعة الشمس.

ومـا إن وصلنا إلى المدرسة حتـى تجمّعنا في الساحة المحاطة بأشجار اليوكاليبتوس؛ استعـداداً لأول طابور مدرسي، ثمّ شاهدنا المديـر؛ السيد دبليو. إم. بهيري (لا تربطه صلة قرابـة بالمحـارب السحري الأسطـورة)، الذي عبَّر عن سعادته لرؤيـة وجوه جديدة مشرقة واعـدة، بقولـه: **إنّ مدرسة كاتشوكولو حريصـة على تعليمكم شتّى صنـوف المعرفة التي ستعين بلدكم، وتجعله فخوراً بكم.**

كنّـا حقّاً مجموعة جيدة، تتطلّع إلى التعلّم، ويسري في أوصالها حُبّ المعرفة، والرغبة في البحث والاستكشاف. وقد تأكّدت حينئذٍ أنّني أمرّ بأفضل أيام حياتي. لذا، لم أستطع أن أكفّ نفسي عن الابتسام.

أكمل المدير قائلاً: **لكنّ حالنا حال أيّ مؤسسة تعليمية؛ فإنّ لهذه المدرسة قوانين يجـب اتباعهـا. يجب علـى كلّ طالب ارتداء الزي المناسب، وتحـرّي الدقة في المواعيد؛ وإلّا كانت العقوبة فورية.**

حيـن انتهـى الطابور، مشيت صوب الصـف برفقة غيلبرت، فربّـت السيد بهيري على كتفي، قائلاً: **ما اسمك؟.**

أجبت وعلامات التوتر بادية على مُحَيّاي: **ويليام ترايويل كامكوامبا»**

قال: **حسناً يا ويليام، هذا ليس زيّاً مدرسيّاً مناسباً.**

لا بُـدّ أنّـه لاحظ إبطـي. وددت لو هربت واختبأت. ثـمّ نظر السيد بهيـري إلى قدمي، قائلاً: **يُمنَع ارتداء النعال. يجب أن يرتدي طلابنا أحذية مناسبة دائماً. لذا، يتعيّن عليك العودة إلى البيت وتغييره.**

نظـرت إلى خُفّـي اللذيْنِ كانا في حالـة يُرثى لها. كان الشريـط المطاطي الذي يثبّت النعـل مقطوعـاً في إحدى الفردتين، مـا اضطرني إلى حمل إبـرة كروشيه كبيرة وخيط في جيبي احتياطاً. لم يكن لديَّ حذاء في البيت، لذا كان عليَّ التفكير بسرعة.

قلت: سيدي المدير، يمكنني ارتداء حذاء مناسب. ولكن، لأني أسكن في ويمبي، فإنّه يتعيّن عليَّ قطع جدولين يومياً للوصول إلى هنا. ولما كنا في موسم المطر، فتخيَّل كيف سيدمِّر الوحل حذائي الجلدي. لن تقبل والدتي بالأمر.

قطب المدير حاجبيه، مُفكِّراً فيما قلت، ودعوت الله أن تنجح الخطة.

قال: حسناً، سأسمح بذلك مؤقّتاً. ولكن، حالما ينتهي موسم المطر، أريد أن أراك ترتدي حذاءً مناسباً.

لم يكن والدي يملك ثمن الكتب أيضاً؛ إذ كان ثمن الكتاب الواحد بضع مئات من الكواتشا. حتى في أوقات الرخاء، لم يكن معظم الطلاب يملكون ثمن تلك الكتب، وكانوا مضطرين إلى مشاركتها. كان الأمر في المدرسة الابتدائية يحتم عليك حشر نفسك في المقعد نفسه مع الطلاب الآخرين، الذين قد لا يقرأون على نحوٍ أسرع منك. ولكن، من حسن طالعي أنّ غيلبرت تمكّن من شراء الكتب كلّها، وسمح لي باستخدامها معه، وهو أمر جيد؛ لأنّ كلينا يقرأ بالسرعة نفسها.

كانت الأوضاع في مدرسة ويمبي الابتدائية مروِّعة؛ إذ اضطر الطلاب إلى الدراسة تحت الأشجار خارج الغرف الصفية التي كانت ممتلئة على بكرة أبيها. وحتى داخل هذه الغرف، كانت السقوف تدلف كلّما نزل المطر. وكان صف المعايير الثلاثة يفتقد لجدار كامل، ولم تكن المراحيض قذرة فحسب، بل كانت خطرة أيضاً. وكان النمل الأبيض يأكل بِنَهَم الأرضيةَ المصنوعة من ألواح خشبية؛ ما أدّى إلى سقوط الأرضية بإحدى زميلاتي (تُدعى آنجيلا) في ظهيرة أحد الأيام. وقد مرّت ساعات عدّة قبل أن يتمكّن أحد من سماع صرخاتها القادمة من القاع اللزج. وبعد هذه الحادثة، امتنعت آنجيلا عن الذهاب إلى المدرسة.

كنت آمل أن تكون الظروف أفضل في المدرسة المتوسطة، لكنّ أملي خاب. فما إن وصلت أنا وغيلبرت إلى صفنا في مدرسة كاتشوكولو، حتى طلب مدرِّسنا الجديد السيد تيمبو من الجميع الجلوس على الأرض. يبدو أنّ الحكومة لم ترسِل أيّ أموال لشراء المقاعد،

كمـا يشير مظهـر المقاعد العام إلـى أنّها لم ترسِـل المال اللازم لغايـات الترميم. وكانت هنالك حفرة كبيرة في الأرضية، كأنّ قنبلة انفجرت في المكان.

بدأنـا بدراسـة التاريخ من فورنا، وكانـت موضوعاته تتضمّن الحضـارات القديمة في الصيـن ومصر وبلاد الرافديـن، والتاريخ المدوَّن، والتاريخ الشفهـي، وأول أشكال الكتابة. أيضاً، أخذنا ندرس الجبر في حصة الرياضيات؛ وهو أمر كان صعباً بالنسبة إليَّ. ثمّ عرّجنا علـى علـم الهندسة قليـلاً؛ وهو علـم أحببته ولا شكّ. وقـد تعلّمنا في الهندسـة عن الزوايا والدرجات، فتذكّرت أنّ البنّائين في السوق التجاري يستخدمون مصطلحات مثل هذه.

وفي يوم لاحق، وفي أثناء درس الجغرافيا، أخرج السيد تيمبو خارطة العالم، ثمّ حدّدنا موقع قارة إفريقية عليها. بعد ذلك طرح السؤال الآتي: **أيّكم يستطيع إيجاد مالاوي؟**.

أجاب أحد الطلاب: **نعم، ها هي ذا!**.

وضعنـا أصابعنـا علـى خارطة بلدنـا، ودهشت من مـدى صغر حجمهـا مقارنة ببقية الكوكـب. ثمّ أخـذت أُفكِّر في كيفيـة اتساع ذلك المـكان الصغير لأحـداث حياتي بمختلف تفاصيلهـا. إنّ الناظر إليها علـى الخارطة (تضاريس مظلّلة باللـون الأخضر، وطرق ملتوية باللون البني، وبحيرة ممتدّة كجوهرة متلألئة) لن يخطر على باله أنّ أحد عشر مليون نسمة يعيشون هناك، وأنّ جُلّهم يعاني المجاعة والموت شيئاً فشيئاً.

كانـت توقعاتـي السابقة بالنسبة إلـى الجوع في غير محلّهـا؛ إذ كان الجوع في الصف مؤلِمـاً كحاله في الحقول. وكان الوضع أسوأ ممّا اعتقدت. فقد كنت أجلس بالصف ومعدتي تهدِّد وتزعق وتتلوّى، الأمر الذي شوّش تفكيري. وسرعان ما صرت أواجه صعوبة في الانتباه والتركيـز. كان الحماس حاضراً بقوّة بين زملائي في أسبوع الدراسة الأول، ولكن بعد مرور أسبوعيـن فقـط، كان الجوع قد أثَّر فينا جميعـاً. فبدأ صمت تدريجي يخيّـم على المدرسة كلهـا. كنت ترى في بداية الفصل كثيراً من الأيدي المرفوعة كلّما سأل السيد تيمبو: **حسناً، هـل عندكـم أيّ أسئلـة؟**. أمّا الآن فلا يوجد أيّ مـن المتطوعين. وأصبح ما يشغل بال معظم الطـلاب هـو العودة إلى البيت والبحث عن الطعام. وقد لاحظـت كيف أصبحت الوجوه أكثر نحافـة، وكيف اختفى بعضها مع مرور الوقت. ولما كانـت أنّ البيوت خالية من أيّ مرطّب أو

صابون، فقد أصبح جلد الناس رماديّاً جافّاً، كأنّهم مغطّون بالرماد. وغاب الحديث عن كرة القدم في أثناء الفسحة ليحلّ محلّه قصص عن الجوع.

قال أحد الأولاد: **رأيت البارحة أناساً يأكلون سيقان الذرة مع أنّها لم تنضج بعدُ. أنا متأكّد من إصابتهم بالمرض.**

قال آخر: **أراكم على خير يا رفاق. لن آتي إلى المدرسة غداً. لا أعتقد أنّ بإمكاني السير بعد الآن.**

لم يكن أيٌّ من ذلك مهمّاً؛ ففي الأول من شباط، أعلن السيد دبليو. إم. بهيري خبراً في أثناء الطابور الصباحي، حيث قال: **نعي جميعاً الأحوال التي تمرّ بها البلاد بأسرها، وكذا التحديات التي تواجهنا نحن أيضاً. لكنّ أغلبكم لم يدفع بعدُ الرسوم المدرسية لهذا الفصل. ستنتهي مدة السماح غداً.**

عقدت معدتي نفسها مرّة أخرى لمعرفتي أنّ والدي لم يدفع الرسوم بعدُ. كنت قد أبيت الطلب منه ذلك في الأسابيع التي خلت لمعرفتي مسبقاً بجوابه. كانت الرسوم ألفاً ومئتي كواتشا، تُدفَع على ثلاث دفعات في العام. أخذت ألوم نفسي – في أثناء عودتي إلى البيت – على تفاؤلي وتحمّسي الزائدين، وأسأل عن سبب موافقة والدي على إرسالي إلى المدرسة أصلاً.

سألت غيلبرت: **ماذا سأفعل؟ أعتقد أنّني سأذهب إلى البيت لأسمع نفس الديباجة نفسها.**

قال: **لا تقلق كثيراً، انتظر لنعرف ما سيحدث.**

حين عدت إلى البيت، وجدت والدي في الحقل، فذهبت إليه، وأخبرته بما حدث، قائلاً: «**طلب إليَّ مدير المدرسة أن أجلب الرسوم غداً؛ ألفاً ومئتي كواتشا. أظن أنّه يتعيّن علينا الدفع، السيد بهيري لا يقبل المزاح في مثل هذه الأمور**».

نظـر والدي إلى التراب بالطريقة نفسها التي نظر بها إلى أكياس الحبوب في المخزن سابقاً؛ وكأنّه ينتظر منها أن تُخبِره شيئاً، ثمّ نظر إليَّ نظرته المرعبة، قائلاً: **تعرف الأحوال التي نمرّ بها يا بنيّ، نحن لا نملك شروى نقير.**

كنت أراقب حركة شفتيه. ولكن، ما كان يدور في رأسي هو صوت السيد بهيري يُكرِّر ما قاله في أثناء خروجنا من المدرسة: **لا رسوم، لا دراسة.**

قال والدي: **أنا آسف، سيكون الوضع أفضل العام المقبل، لا تقلق يا بنيّ.**

لاحظـت أمارات الحـزن والاستياء والوجوم بادية على مُحَيّا والـدي، لكنّني كنت واثقاً أنّ شعـوره هذا لا يقارن بشعور الحزن العميق الـذي يُخالِج أعماقي. وفي صباح اليوم الآتي، ومـن باب تعذيب نفسي فحسب، استيقظت في التوقيـت المعتاد، ووقفت عند مفترق الطرق منتظـراً غيلبرت. حتى إنّني ارتديت بنطالي الأسود وقميصي الأبيض. لا أعرف لماذا فعلت ذلك؛ فأنا لم أكن ذاهباً إلى أيّ مكان.

وسرعان ما حضر غيلبرت، قائلاً: **هيّا يا ويليام، ألن تذهب إلى المدرسة؟**

وددت لو بكيت، لكنّني تمالكت نفسي، قائلاً: **سأترك المدرسة، لم يتمكّن والداي من تدبّر أمر الرسوم.**

إنّه أمـر مؤسف، قالها غيلبرت والحزن بادٍ عليه، الأمـر الذي خفَّف عنّي قليلاً. ثمّ أضاف قائلاً: ربّما سيتمكّنان من توفير المال اللازم.

قلت: **ربّما. أراك لاحقاً يا غيلبرت.**

توجَّهـت صوب بيت جيفري ونفسي تقطر حسرةً وألماً، علَّني أُشاطره همّي. كان الحظ قـد حالف جيفري قبل ذلك بأسبـوع؛ ففي أثناء عاصفة هوجاء هبَّـت ليلاً، ضربت صاعقة شجـرة يوكاليبتوس عملاقة خلـف منزلهم، ما أدى إلى سقوطها. وفـي اليوم اللاحق، خرج جيفـري وقطَّع الشجرة ببلطته، ثمّ جاب الطرق يبيـع حُزماً من الحطب لقاء ثلاثين كواتشا للواحدة، الأمر الذي وفَّر لعائلته طعاماً يكفيها أسبوعين. وبين انشغالي بالمدرسة وانشغاله بالحطب، لم يشاهد بعضنا بعضاً مدّة أسبوعين. لذا، كنت مشتاقاً لمعرفة أخباره.

كان جيفـري يرتدي ثيابـه عندما دخلت، وقد تسمَّرت في مكاني حيـن رأيته؛ إذ كانت ثيابه تبدو مستعـارة كأنّها لشخص آخر، وكانت عيناه غائرتين معتمتين، وكان بياض عينيه شديـداً كأنّهمـا عينا شبح. كان ابـن عمي فتًى ضخماً فيمـا مضى، لكنّـه الآن يُشارِف على الهلاك. لقد حدث هذا الأمر بسرعة كبيرة.

سألني: **لماذا لم تذهب إلى المدرسة؟ ألم تُقبَل في مدرسة كاتوكولو؟**

قلت: **لا يوجد مال. لقد تركتها اليوم.**

قال: **أنا حزين لسماع ذلك. كلانا يمرّ بظروف لا يُحسَد عليها.**

قلت: **صدقت.**

نظر إلى الأرض، ثمّ هزّ رأسه، قائلاً: **لعلّ القدر يخبئ لنا شيئاً حسناً.**

وعلـى الرغـم ما شاهدتـه من الحال التـي وصل إليهـا جيفري، فقد بقيـت غارقاً في أحزاني وأشعر بالأسى تجاه نفسي، ثمّ أخذت أُفكِّر وأسأل نفسي: **لماذا أنا تحديداً؟**؛ كأنّني الوحيـد الذي يلازمه سوء الطالع. بعد انتهاء الدراسة ظهيرة ذلك اليوم، مررت مرّة أُخرى بغيلبـرت الذي نقل لي نبأً جديداً: **كنّا قلّة اليوم. لقد تـرك معظم الطلاب المدرسة أيضاً**؛ إذ بقي عشرون طالباً من أصل سبعين.

لـم تَبْـدُ مشكلاتي ذات أهميـة عندئذٍ؛ فقد كان الجـوع يلفّ البلاد كلهـا. لذا، قرّرت الوثوق بكلام والدي الذي قال: إنّنا سنكون على ما يرام إذا تجاوزنا مرحلة الجوع هذه. وكما قال جيفري: **علينا تجاوز الجوع أولاً؛ فالتفكير في الغد صعب في حدّ ذاته.**

نفـدت **الغاغـا** فـي أواخر شهر كانـون الثاني، فتحـوّل الناس الذين كانـوا يقتاتون بها إلـى تناول أوراق اليقطين، وهنا بـدأ الجوع الحقيقي. لقد وصلت المجاعة إلى مالاوي، وحلّ البـلاء بالجميع، مثل الوباء الكبير الذي أحـاق بمصر كما تعلّمنا في المدرسة، بسرعة ومن دون توقّـف. وقد خُيِّل للرائي أنّ أجسام الناس قـد أصابها الشحوب والهزال الشديدين بين ليلـة وضحاها. وها هـم ذا ينتشرون بالآلاف عبر المنطقة، باحثيـن عن الطعام في التراب

كالحيوانـات. زِدْ على هذا أن بعضهم يفارقون الحيـاة واحداً تلو الآخر، بعيداً عن عائلاتهم وبيوتهم.

وقـد غدا الناس الذين كانوا يحملـون مقتنياتهم إلى السوق التجـاري يوماً ما، يمرّون بالطريـق نفسـه وكأنّ على رؤوسهـم الطير، وأعينهم تغـور في محاجرها. لقـد دمَّر الجوع أجسادهـم وأصابهم بداءين خطيرين؛ إذ ذوى بعضهم حتـى أصبحوا هياكل عظمية تمشي علـى الأرض. رقابهـم طويلة نحيلة كطيـور الدوكوي التـي تشرب الماء مـن النهر القريب، ورؤوسهـم منحنيـة نحو الأسفل لا يقوون على رفعها في حين أُصيـب آخرون **بالكواشيوكور**، وهـي حالة مروِّعة تصيب الجسم حين يختفي البروتين من الدم. وعلى الرغم من أنّ أولئك الناس كانـوا يتضوّرون جوعاً، فإن بطونهم وأرجلهم ووجوههم كانت منتفخة بفعل السوائل، مثل قرادة مليئة بالدم.

لـم يقل هؤلاء الجوعى كثيراً في أثناء مرورهم، كأنّهـم أموات حقّاً. فقد كانوا يبحثون عـن شـيء يملأون بـه معدهم. كانـوا يتنقلّون علـى جانبي الطريـق وعبر الحقـول بانتباه، ملتقطيـن قشور الموز والعرانيس المرمية، ثمّ يدسّونها في أفواههم. كان هناك أيضاً بعض الرجـال قـرب منزلي يحفرون جذور التشيكهـاوو الموجودة في أشجار المـوز لكي يسلقوها علـى طريقة الكاسافا، وبمحاذاتهم بعض آخر يحفـرون للحصول على جذور ودرنات لأنواع أُخـرى، حتـى إنّهم قطعوا العشب عن جانبي الطريق وطحنـوه حتى استحال دقيقاً. وقد لجأ آخـرون إلى تناول الحبوب التي وزّعتها الحكومة على هيئة طرود إعانة، فكانوا يفركون عنها المبيـد الحشـري (بلونيه: الوردي والأخضر) المخصَّص لمكافحـة السوس. لكن، ومع تعذُّر إزالة السم كلّه، فقد أُصيب كثيرون بالقيء والإسهال، الأمر الذي زاد من وهنهم. إضافة إلى أنّهم لم يجدوا شيئاً يزرعونه بعد أكلهم البذور.

كان الجائعون يتوقّفـون ببيتنا، ويتوسّلون والدي من أجل الحصول على مساعدة. كنت أراهـم آتين من بعيد، فأقول لنفسي: **يا للهول! هذا الرجل يبدو سميناً**، مُعتقِداً أنّني رأيت – أخيراً– شخصاً يتمتع بصحة جيدة. ولكن حالما يصل، أُدرِك أنّه منتفخ البطن فحسب.

أنّنا أثرياء، مع أنّها كانت مثبَّتة بالحجارة فقط. كما كان بعضهم يمشي مسافة عشرين أو ثلاثين ميلاً كلّ يوم.

كانت أقدامهم منتفخة لدرجة يستحيل معها لبس النعال، ثمّ يفاجئونك قائلين:

أرجوك، إذا كان لديك قطعة بسكويت فقط، فأنا مستعدّ للعمل لقائها. لقد مرّ علينا ستة أيام من دون أن نأكل شيئاً. أعطنا طبقاً صغيراً من السيما فقط.

كان والـدي يُـردِّد عليهم قائلاً: **أنا لا أملك شيئاً، وكلّ ما أستطيع توفيره لعائلتي هو ووكمان فقط.**

فيقولون: **أعطنا عصيدة فقط.**

فيردّ: قلت لكم: لا.

قضى بعض الرجال الليلة في باحة بيتنا. كانت الأرض والحطب رطبين ما جعل إشعال النـار أمراً مستحيـلاً. وحين هطل المطر في أثنـاء الليل، اختبأ الرجـال تحت الرواق وهم يرتجفون من شدّة البرد. وما إن حلّ الصباح حتى كان آخرهم قد أطلق ساقيه للريح.

بعد ليال عدّة، كنّا جالسين في الباحة نتناول وجبتنا حين قَدِمَ رجل من عابري الطريق. كان مغطّى بالوحل ونحيفاً لدرجة يصعب معها فهم كيفية بقائه حيّاً حتى هذه اللحظة. كانت أسنانـه بارزة مـن فمه، وشعره متساقط. جلس ببساطة إلى جانبنا من دون أن يلقي التحية. وقـد صُعِقْـتُ حين رأيته يدسّ يده القذرة في كتلـة السيما، ويُخرِج قطعـة كبيرة منها. لقد صُدِمنـا جميعـاً، ولم نقـل شيئاً، في حين أغمضـ عينيه وأخذ يمضغ الطعـام بلذة، ثمّ بلعه ببطء ورضى. وبعد أن أصبح الطعام آمناً في معدته، التفت إلى والدي، قائلاً: **أمن مزيد؟**.

قال والدي: **لا.**

فقال: **حسناً**، ثمّ نهض ومضى في حال سبيله.

استمـر توافد الحشود من الغابات، وبدأ المركـز التجاري يغصّ بهم أكثر من أيّ وقت مضـى، مثل قطعان الحيوانات المجنونة، والجدبـاء تجرّها النار معاً. وجلست بعض النسوة

جانباً، وقد بدا عليهنّ الهزال والضنك، ومالت وجوههنّ إلى السواد، ثمّ أخذن يتضرّعن لله تعالى. لكنّهنّ فعلن ذلك بهدوء، ومن دون أن يذرفن الدموع. كان الأسى صامتاً في الأنحاء كلّها؛ لأنّ أحداً لم يكن يقوى على البكاء. وفي ركن آخر من المركز التجاري، تجمَّع أطفال ببطون منتفخة وشعر غير مألوف تغلِب عليه الحمرة حول واجهات المحالّ؛ إذ ما يزال عدد من التجار يفرش القماش في الوحل لبيع الحبوب، لكن الكميات كانت تقلّ شيئاً فشيئاً. وكان الحصول على ثمنها يماثِل الحصول على الذهب، أو شراء الكون والنجوم. كان الناس يتجمّعون هناك، فقط ليحدّقوا بصمت؛ كأنّهم يشاهدون حلماً في الجنة. أمّا أولئك الذين كانت لديهم بقية من قوّة، فأخذوا بالصراخ والتوسّل.

كان بعضهم يقول: **بوانا، أعطني طبقاً صغيراً من الدقيق، ذلك كلّ ما يلزمني. أريده لطفلي.**

«**إن أعطيتك فسأبدأ...**» قالها التجار، ولم يزيدوا.

بقي أولئك الذين لديهم بقية قوّة على مقربة، يتصارعون كالكلاب كلّما سقطت نواة على الأرض؛ ينظِّفون الحصى عنها، ثمّ يضعونها في أفواههم. وفي هذه الأثناء، مشى رجل بين الجموع مترنِّحاً وهو يُتمتم قائلاً: **ساعدوني أرجوكم، أنا يتيم. لقد مات والدي.** كان هذا الرجل في الأربعين من عمره.

كان كلّ منهم يروي قصة مختلفة، لكنّ الموت كان مشتركاً بينها.

قال أحد المُزارِعين: **سمعت عن رجل قضى أياماً يبحث عن طعام، ثمّ قرَّر أن يغفو تحت شجرة ذا صباح، فلم يصحُ قطّ.**

قال آخر: **كنت أطهو ووكمان، فإذا بشخص يجلس قبالتي، قائلاً: أحتاج إلى أكل هذا. ولكن قبل أن تجهز السيما، كان الرجل قد فارق الحياة.**

كان هنالك آخرون ممّن بقوا من دون طعام أياماً عدّة، لدرجة أنّ أجسادهم أُصيبت بصدمة مميتة عند تناول أول وجبة. كما مرّت امرأة من فوق رجلين ميتين على قارعة الطريق، وكانا لا يزالان يمسكان بمعوليهما. وقد حاول رجال انتفخت أجسادهم بسبب داء

كواشيوركور، التخلّص من معاناتهم بتصريف السائل من تقرّحاتهم الكبيرة بسكين، لكنّهم ماتوا بعد أيام من العدوى.

ثـمّ وردت أخبار عن مجنون القرية بيني بيني، الـذي كان يُضحكنا في أوقات الرخاء؛ إذ كان يتوجّـه صـوب التجار في المركز التجاري بعينين تهذيـان ليسرق الكعك والفانتا من أكشاكهـم. لم يكن أحـد يجرؤ على استرجاعها منه؛ لأنّ يديه كانتـا متسختين على الدوام. يُذكَـر أنّ المجانين كانوا يعتمدون على الناس في أمـور الرعاية والغذاء. ولكن، لم يعد أحد يهتم بهم الآن. وها هو ذا بيني بيني يموت داخل الكنيسة.

فـي خضم تلك الحالـة من المعاناة والارتبـاك، أفادت الإذاعة الحكوميـة أنّ الرئيس سافـر إلـى لندن في زيـارة عمل. ولدى عودته، سألـه مُراسِل الإذاعـة بخصوص المجاعة، فتحلّقنا في البيت حول المذياع لننصت إلى ما سيقوله الرئيس.

قال المُراسِل شيئاً من قبيل: **سيادة الرئيس، هنالك كثير من الناس يموتون في شتّى أنحاء البلاد نتيجة نقص الغذاء. ما خطتكم لمواجهة هذا الوضع؟**.

سخـر الرئيس من ذلك، قائـلاً: إنّه ترعرع في قرية يموت النـاس فيها لأسباب أُخرى غير نقص الغذاء، من مثل: السلّ، والكوليرا، والملاريا، والإسهال. ثمّ أضاف: **لم يمت أحد من جرّاء الجوع.**

وحين أنهى المُراسِل المقابلة، هزّ والدي رأسه، ثمّ أشاح بوجهه.

سألت: «**كيف له أن يقول ذلك يا أبتِ؟**».

أجاب والدي: «**بعض الرجال يولدون وهم فاقدو البصر. لكنّ هذا يأبى أن يرى**».

فـي ظهيرة ذلك اليوم، تعرّفت فجـأة الطريقة التي يُدار بها العالَم. فعندها كنت دائم التفكيـر في مسألة تجاهل دول العالَم لمشكلتي الجوع والمرض اللتين تضربان عدداً لا بأس به من دول المنطقة، أيقنت أخيراً أنّه يتعيّن على الجميع الاعتماد على نفسه. لذا، كان لزاماً علينا الاعتماد على أنفسنا أيضاً.